بُرج عاجٍ أم جِسْر إرشاد ؟

المجلة الطليعية ودورها في عصرنا هذا

في الآونة الاخيرة كثر التحدث عن فوائد حضارتنا وتمجيدها ، وخاصة بمقارنتها بالحضارات الاخرى، الى حد اننا صرنا نميل الى اخذ هذه الفوائد على علاتها وننسى ان عددا وافرا منها انما كان ثمرة العزلة ومعارضة الآراء الشائعة ونتيجة مقاومة للعادات والافكار والاعراف السائدة . ونميل الى ان ننسى ان الذين يرفعون اصواتهم بالثناء والتمجيد نادرا ما يكونون الذين يبدعون ويخلقون ، بل انهم لا يقفون في العادة الى جانب الذين يحاولون ان يشقوا طرقا جديدة في عالم الفكر . ومن الصعب ان نتذكر ، او ان نتقبل ، ان المؤسسات التي ترعى نمو الثقافة وانتشارها ، كالمتاحف والمدارس ودور النشر ، تعمل في غالب الاحيان على كبح الجديد في حقول الفن والفكر اكثر مما تعمل على بعثه والتشجيع عليه . ورحنا نتخذ مما انجزناه وحققناه عذرا للاكتفاء والقناعة .

هذه هي المفارقة الكبيرة في عصرنا . ليس سرا ان المجتمعات الحديثة ، والشيوعية منها بصورة خاصة ، هي مجتمعات جماعية، وهذا لا يعني فحسب انها مركبة تركيبا جماعيا بل يعني ايضا انها مرتبطة بمُثُل جماعية. لا اعني بهذا ان ارادة الجماهير او افكارها هي التي تسيّر العالم اليوم ؛ فبمعنى من المعاني لا يوجد شيء اسمه ارادة الجماهير او افكار الجماهير ؛ ان ما لدينا مزيج من الاسطورة والواقع : فاسطورة الجماهير تخلق فكرة كتلة كبيرة متجانسة لا بد لرغباتها من ان تحقق، والواقع هو ان هذه الرغبات تُخلق و تستغل بغية الاحتفاظ بالسلطة والاستقرار وباستمرار الانتاج والاستهلاك بشكل مرضٍ . هذا الوضع هو ما يشار اليه في العادة باسم التقدم . ثمة خيوط كثيرة نسجت معا وتكوّن منها المجتمع الحديث ، لكن ما لدينا هو في جوهره تطور ديمقراطية صناعية. ونظرا لان الديمقراطية جاءت بعد نمو الصناعة راح صنع عدد متزايد من الاشياء، بما في ذلك الاشياء الثقافية – لعدد متزايد من الناس ، يتطلب سوقا حرة للافكار كما للبضائع. ومُثُلنا (كما لا بد لها وربما ان تكون) هي مثل جماعية . فان اهداف المجتمع الحديث مرتبطة برفاهية الشعب وتربيته وبرفع مستواه الاقتصادي والثقافي وبالعمل على تحقيق بعض المثل الديمقراطية المعينة . ومع ان هذه المثل لم يتم تحقيقها الا جزئيا ، وغالبا ما تكون ستارا نبيلا تختفي وراءه دوافع السلطة او المنفعة ، فانها رغم هذا تؤثر كثيرا في نوعية حياتنا الثقافية وفي تحديد معالمها .

بوسعنا ان ننطلق من هنا فنتفحص المجتمع الجماعي بشكل اكثر تفصيلا . لكني اعتقد اننا نجني متعة اشد وفائدة اكبر في هدفنا الحالي ان تمعنا في آثاره الثقافية ، وهي تبعث البلبلة نظرا لبعدها عن البساطة وكونها على شيء من التعقيد . فالمفارقة التي نواجهها هي ، كما ذكرت ، ان ما احرزته حضارتنا من « تقدم » من شأنه في الغالب ان يقضي على الاشياء ذاتها التي وهبت حضارتنا طابعها ونوعها الفريدين . فما نفكر به بطريقة عفوية ، وربما بتسرع ، كحضارتنا وبالتالي كحضارة الاكثرية قد كان بالتأكيد (على الاقل في اصله) حضارة اقلية . وان التعليم الجماعي ، وثقافة الجماهير والفئات الوسطى ، وهي تنتشر افقيا وعموديا ، وامتداد الديمقراطية وانتقالها من الاصوات الانتخابية الى الآراء – كل هذه التقدمات في حياة اكثرية الناس قد قللت

رَئيس تحرير « ذي پارتيزان ريڤيو »
رَئيس تحرير « ذي كنيون ريڤيو »
رَئيس تحرير « ترانزيشن »

من اهمية دور الاقلية التي كانت حتى الآن منبت التقدم في الفن والفكر ، بل وهددت وجودها اطلاقا .ومن ناحية فكرية وفنية ، ما نسميه الحضارة الغربية هو ذلك التراث ومجموعة الافكار والآثار الفنية الذي يتيح قيام افكار وآثار فنية جديدة والذي تظل هذه تبدعه باستمرار من جديد . لهذا فان رفع المستوى الثقافي العام يعني ، على الصعيد النظري ، مجرد جعل الآثار ذاتها ، التي قد تكون قليلة نسبيا ، في متناول القادرين على استيعابها، وجعل طريقة حياتهم وتفكيرهم جزءا من التراث الذي تنبثق عنه هذه الآثار . لكن ما يحدث هو انه في سياق ترقية طبيعة عقول الجماهير وحياتها تخبو الجذوة في طبيعة العقول والحياة التي انتجت الآثار الاصلية . ربما كان ممكنا في مجتمع مثالي ما ان لا ينزع الاستهلاك الى القضاء على سياق الابداع . فاذا نظرنا الى المشكلة من ناحية ميكانيكية ، اي كمشكلة نقل وايصال ، فانه لا يبدو ان هناك سببا ما يحتّم ان يؤول نقل الكتب او اللوحات الفنية او النظريات الى اي تلف في النتـاج او اي جفاف في الينبوع الذي انبثقت منه . لكن الواقع هو ان السياق الذي لدينا في مجتمعنا الحديث ليس سياق توزيع وتعليم، على المستوى الذي تتيح الآثار الاصلية ، بل هو سياق تبسيط وابتذال واختصار ؛ واننا ايضا ننتج مواد ثقافية تكون بديلا مقبولا وتوهم بانها حقيقية لكنها سهلة للهضم والقبول ، ونتيجتها في آخر المطاف تثبيط عزيمة الناس عن بذل الجهود اضافي بغية تناول المواد الحقيقية ، وبالتالي جعلهم عاجزين عن التمييز بين تلك وهذه . ان كانت لدى القارىء شكوك فيما اقول، فليلق نظرة على الولائم الثقافية التي تولها لنا المجلات الشعبية الواسعة الانتشار: على ذلك المزيج من البذاءة واقاويل المجتمع والحذلقة ، مرفقة ببعض كتابات جدية ، مما يجعل هذه المجلات قراءة مستساغة للقارىء ذي الوزن وقراءة ثقيلة للقارىء الخفيف .

كيف تم كل هذا ؟ نعرف ان ما نسميه الحضارة الغربية كان حتى عهد قريب حضارة ارستقراطية، وهذا يعني ان انتاجها واستهلاكها كانا يتمان في معظم الاحيان عن طريق نخبة، كانت نخبة نبلاء في عصور الاغريق والرومان ، ونخبة رجـال دين في القرون الوسطى ، وبعدها نخبة اجتماعية واقتصادية . لكـن بمجيء الثورة الرأسمالية صار القضاء تدريجيا على النخبة القديمة،وقامت مكانها نخبة جديدة غير واضحة الاهداف ولا المقومات يمكن وصفها بانها مزيج من نخبات عديدة مختلفة . فهنـــاك من جهة نخبة موهوبة ارستقراطية لا تعنى الا بتقييمها وفنونها ورؤاها ولا تقيس النجاح الا بما يقوله فيها من هم على شاكلتها ويطبقون اعلى مقاييس حرفتهم. وهناك من جهة اخرى نخبة ثانية ، هي ايضا ماهرة ومكرسة ذاتها لما تعتقد انه حرفتها، لكنها تقيس النجاح بطريقة اكثر وبرد فعل جمهور اوسع وبمقياس المال والشهرة في احيـان كثيرة . هذه النخبة هي الارض التي تنبثق منها معظم الذين طبقت شهرتهم الآفاق. وهناك ايضا نخبة من سحرة الثقافية الذين يستطيعون ان ينتجوا ثقافية وضعها اية حاجيات تستطيع الاسواق الثقافية استعمالها آنذاك . عقول افرادها مقولبة لتناسب الوقت الاخير ، وهم يتحدثون كأنهم يقودون حملة صليبية لرفع مستوى جمهورهم ولو بمقدار يسير . عن هـذا النتاج ايضا ينبثق بعض الذين طبقت شهرتهم الآفاق . وهنالك اخيرا النخبة الاكاديمية وهي تتألف من باحثين وكتاب يحافظون على المستوى ولا ينخفضون به ويدربون ذوي الاختصاص ، لكنهم غالبا مـا يتصرفون وكأنهم يعدون نشئا ليتعرفوا الى مكانهم في الماضي والقديم . وليس بمدعاة للاستغراب ان تقود الفروقات بين

هذه النخبات وجماهيرها ، على الرغم من تداخلها لحد كبير ، الى شيء من الفوضى .

وربما كنت اصف مجتمعات جديدة كالولايات المتحدة اكثر مما اصف مجتمعات قديمة. لكني اعتقد انبامكاننا القول ان المجتمعات الجديدة تبدو انها هي المثال الذي تحتذيه المجتمعات القديمة فيما يتعلق بأمور الثقافة . ولا حاجة لي بان ادرس هذه النقطة بتفصيل وتطويل اذ انها قد عولجت بنباهة وافاضة (لاول مرة كما اظن) في كتابات ده توكفيل، الذي كان يكتب عن اثر الاساليب الشعبية الدارجة والايمان بالمساواة على الافكار المتعلقة بالسلطة والتراث والمقاييس في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر . ونرى في الاتحاد السوفييتي، اكثر المجتمعات حداثة ، شيئا آخر . فقد قضي فيه فيما اعرف قضاء يكاد يكون تاما على التراث الذي كان يضم شيئا من ارستقراطية الفكر واقصى الوان الثورة والسويداء ، التي يعد نيتشه نموذجها الاصلي الحديث . ورقيت الفكرة التقدمية الشعبية فاصبحت مذهبا . ولتحقيق هـذا كان ضروريا انتاج نخبة جديدة ، نخبة سياسية واجبها ان تضبط شؤون الخيال وان تجد ايضا اسلوبا قوميا للتعبير . لكن بدأت تظهر على النخبة السوفييتية في الآونة الاخيرة دلائل التفسخ ، اذ شرع كثير من الكتّاب والفنانين الشبان يصرون على ان يكون ولاؤهم لمواهبهم وفنونهم فوق ولائهم السياسي. وفي هذا يلتقي بالطبع ادباء روسيا وفنانوها بالكتّاب والنقاد الجديين في العالم الغربي .

وهكذا فاننا نشهد صراعا (ربما كان ظـاهريا فقط) بين فوائد المجتمع الحديث الذي يدعي انه ينشر الثقافة والديمقراطية نشرا واسعا وبين الثقافة التقليدية ، ثقافة النخبة التي تعنى بنوعية الاثر اكثر من عنايتها بعددالاشخاص الذين يصلهم ذلك الاثر . وسأعود الى بحث هذا الصراع بتفصيل بعد قليل . لكن اذا افترضنا الآن كما يفترض الكثيرون ان الصراع قائم ، فاننا يجابهنا اختيار مستحيل هو اشبه بالاختيارات التي تؤلف منها الاحاجي . فهناك بعض المفكرين ، نجدهم خاصة في زمرة علماء الاجتماع ، الذين يزعمون ان الاستغناء عن الثقافة (خاصة وانها ملك لفئات معينة محدودة ، بـل وتتسم بالاعتلال والشذوذ) لهو ثمن بخس يجب دفعه لقاء احراز تقدم شاسع في التربية وسبل الاتصال يتيح لعدد متزايد من الناس ان يشاركوا في ذخائر حضارتنـا . ويصر هؤلاء المفكرون الديمقراطيون ان الرومنطيقيين المدمنين للماضي والقديم ، او نرجسيي الادب المدمنين لانفسهم ، هم وحدهم الذين يتمسكون بحلم غابر قديم . هذه حجة هؤلاء الاحصائيين الثقافيين الذين يحصون الرؤوس بدون ان يتساءلوا عما في دواخلها والذين ينتشون بفكرة نشر شيء ما يشبه «الثقافة» لحد يجعلهم لا يعبأون بالتساؤل عن مـاهية الشيء الذي ينشرونه . وعلى كل ، فمهما كان موقفهم بليدا او سخيفا ، فالواقع هو انهم قد اتخذوا موقفا . واذا كان الخيار ، كما قلت قبلا ، هو حقا بين الفن والحياة، بين الثقافة كما عرفناها والمجتمع الصالح ، فان خيارنا بالتأكيد لن يكون خيارا لا انسانيا . لو كان هذا هو الوضع في الواقع لكنا في مأزق لا مخرج منه ، لكني ان اجبرت على اتخاذ موقف فاني بـلا شك سأصوت الى جانب الحياة ضد الفن لان التصويت الى جانب الفن ضد الحياة لهو نوع من البربرية الطليعية .

لحسن الحظ انه ليس علينا ، لا منطقيا ولا انسانيا ، ان نختار هذا الخيار . فاني بكـل بساطة لا ارى كيف يمكن للحياة الجيدة او حتى للحياة الافضل للجمهور الغفير من الشعب ان يهددها مثل ذلـك التفكك والشعور الذي انتج اشخاصا كجون ضن او كولريدج او بروست او كافكا او اليوت . واننـا لا نستطيع بالطبع ان نزعم بان مستوى المعيشة قد انخفض نتيجة وجود وليم فوكنر الروائي او الشاعر روبرت لويل او الرسام جاكسون بولوك ، او ان المدارس او المتاحف قد انحطت . لعل كل ما تأثر هو غرور الذين يريدون ان يدنّسى كل شيء ليصبح في مستواهم هم، ومصالح الذين يحترفون ويتاجرون بتوزيع الثقافة على عدد غفير من الجماهير. (وكثير من افضل الكتّاب والمفكرين لا يصلون الا عددا محدودا من القراء — في بداية الامر على الاقل، الى ان يصبحوا جزءا من التراث الكلاسيكي — وهذا يحدث سريعا في الوقت الحاضر لغايات تجارية وللتبرم من ان المؤلفات الكلاسيكية التراثية لا تجد الا اقبالا محدودا) .

ولعله من المناسب ان احدد بشكل ادق ما نعنيه بحضارتنا ، التي وصفناها بانها حضارة نخبة او حضارة اقلية . لا اعرف مطلقا كيف سيكون حال الفن او الفلسفة في مجتمع مثالي ، مثلما لا اعرف بالضبط كيف

سيكون المجتمع المثالي ؛ والواقع اني اظن انمثل هذه التكهنات وخاصة في حال الفن لا يمكن ان تكون اكثر من لعبة فكرية ، ذلك لان نوع الفن الذي عندنا ، بل وفكرته ذاتها ، ينشأ عن نوع المجتمع الذي عندنا . من المحقق انه منذ بداية القرن التاسع عشر تقريبا يمكن تحديد مفهومنا للفن وما يعرف « بالتيار الرئيسي » للآثار الفنية ذاتها بشكل مغاير لكثير من المؤسسات في الغرب ولنوعية الحياة فيه . ربما كنت ابسط الامر قليلا ، لكني مع هذا لست اشوهه . فان الجزء الاكبر من الفن لم يعبر عن رؤيا الجماهير الغفيرة من الشعب (ولو انه ربما كان احيانا يمثلها) ؛ بل ان الفن الحديث على العكس قد عبر عن الاحلام والقلق والمثل لدى فئة متقدمةعلى سواها ومتميزة في الغالب بجرأتها ومواهبها وذكائها، فئة افترضت انها بمجرد اثباتها مقدرتها ووجودها فانها تتكلم باسم البشرية . لقد كانت هناك حالات شاذة عديدة ، لكن نستطيع ان نقول بصورة عامة ان الفن الحديث حقا قد كانأما ثوريا بصورة علنية او مبتعدا عنالجمهور اومتطلعا الىعالم افضل او ناشدا الكمال الفني (ومنغلقا في العادة على نفسه) ، وغالبا ما كان يبدو كأنه ملحمة للحساسية الجريحة وضحية الوجود الحديث . وفي الوقت ذاته ، كانت للرسم الحديث وللادب الحديث رؤيا للوجود اكثر حرية ، واكثر سعيا وراء التجارب ، واكثر اخلاقية ، واكثر مسؤولية ازاء ذات مثالية وانسانية مثالية . اما فيحال الفكر الحديث فيصعب الوقوف على جوهره : لكني اعتقد ان بامكاننا القول ، بدون ان نبالغ في الاعتباطية او في التعسف، ان معظم ما احرزه الفكر من تقدم كاننقديا وناشدا مجتمعا افضل ولا يحظى بالرضى العام، مع انه كثيرا ما كانت هذه الصفات تقرن باهداف علمية او بدت بانها علمية. غير ان كثيرا من الفكر الحديث يعكس بوجه عام القلق والتبرم الذي نجده بصورة اوضح في الفن الحديث .

هذا في جوهره هو ما نعمل الآن على توطيده ، او على الاستغناء عنه ، او على نشره . (وربما كان عليّ ان اشدّد اني لا اتحدث هنا عن « الثقافة » بمعناها الواسع الذي يكاد يشمل كل شيء – كالافلام والنكتوهزليات الاطفال والفن التجاري) . وكما قلت سابقـــا ، يشعر المرء ان عليه ان يكون مستعدا للاستغناء عن هذه الثقافة التي كنت اتحدث عنها ، اذا كان هذا يجعل الحياة اكثر رفاهية واعمق معنى للشعب بكامله . لكن المشكلة في موقف كهذا هي انه ليس هناك مبرر قط للاعتقاد بان حياة فرد واحد (ولنغض النظر عن الانسانية كلها) ستزداد غنى وثراء نتيجة القضاء على الفن والفكر التراثيين او حتى تخفيض مستواهما . ولا حاجة لي الى تذكير القارىء بان دعاة الثورات المتطرفين واللاديمقراطيين يسارعون في العادة الى رفض بعض اعمال الثقافة رفضا قاطعا باسم التاريخ او التقدم او الانسانية او مجرد الثورة لا غير . وقد كان الشيوعيون مستعدين على الدوام ، كما نعرف ، لتقييد ولكبح حرية الفن والفكر ، التي كانوا يعنون بها حرية انتاج فن وفكر تراثيين « برجوازيين » ، بحجة ان هذه القيود ستعمل على الاسراع في تطوير مجتمع افضل . لكن الدرس الوحيد الذي يمكن ان نتلقنه من جميع هذه النظريات التقدمية ، التي تفترض ان رفاهية الانسانية هي شيء منفصل عن نوع الفن والفكر الذي منه تتألف حضارة الغرب ومغاير له – هو انها تقود الى تدهور الفكر او صبّه في بوتقة واحدة ، بدون افادة البشرية ككل باي شكل من الاشكال . وقـــد كانت القيود تجرّ مزيدا من القيود ؛ وادى بث « الثقافة » الى اغراق السوق بمنتوجات قليلة الجودة .

الا ان هناك نقطة اخرى اكثر اهمية يجب التشديد عليها . فالواقع ان كل ما أُحرز من تقدم في الميادين المثالية والاخلاقية والاجتماعية في العصر الحديث قد انبثق عن الثقافة الجدية التي لا تحظى بالرضى العام والتي تتعرض الآن او تغزوها المجتمعات الجماعية الجديدة.ولأقل بكلصراحة وبدون مواربة: انهذا التيار الرفيع يغذي في المجتمع بكامله طاقته الخلاقة ومخيلته وكان مصدر الفـن الجديد والادراك الجديد والآراء الجديدة في ذلك الآراء المتعلقة بالاصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية . وهل نحتاج الى دليل آخر ونحـن نرى ان الكتّاب والفنانين في البلدان الشيوعية يحاولون ان يجددوا علاقاتهم بمثل التراث الغربي وهم يفتشون عـن اشكال وآراء جديدة بحق وحقيق ؟

اشدّ ما نحتاج اليه في هذه الفترة هو ان نجد طرقا لحماية وتشجيع الثقافة التي تطلق عليها اوصاف متعددة فنسمي ثقافة جدية ، او ثقافة نخبة ، او ثقافة اقلية ، او ثقافة متقدمة على سواها ، او ثقافة لا تجارية .

(ثمة فروق في المعاني بين مصطلح من هذه ومصطلح ، لكنها تشير جميعا الى مظاهر مختلفة للشيء ذاته) . ثمة طرق كثيرة لمقاومة انحلال الحضارة، وربما كان اهمها ان نعمل في نطاق مواهبنا ، لانه لا يمكن ان يتأتى فن وفكر متقدمان وجديان الا اذا احرز تقدم في ميادين الفن والفكر. لكن هناك ايضا ما يمكن ان نسميه سبلا مؤسسية ، كالساندة الحكومية مثلا التي تختلف بخصوصها وجهات النظر . وانا شخصيا تعنيني اكثر ما تعنيني مؤسسة اخرى ، هي المجلات الادبية ؛ وانا مقتنع (ولو ان موضوعيتي هنا ستكون بالطبع موضع جدال) ان هذه هي اشد الوسائل فعالية لحفظ التراث والتكرس اللذين ذكرتها حيّين ولبعث فن جديد ونقد ادبي واجتماعي من الطراز الاول . وقد جرت العادة بان يطلق على مثل هذه المجلات اسم «المجلات الصغيرة» ، لكني اعتقد ان تسميتها بالمجلات « الجدية » او « اللاتجارية » ادقّ ، لان « صغر » جمهور قرائها ليس شيئا تتعمده تلك المجلات تعمدا بل هو شيء تفرضه عليها طبيعة الاشياء . ولا اعرف مثالا واحدا على محرر مجلة جدية يسعى لان يمنع الناس عن شرائها او قراءتها بغية الاحتفاظ بعدد المبيع صغيرا . كما اني اعتقد انه من الافضل تعريف هذه المجلات من حيث الاهداف التي تهدف اليها والخصائص التي تتسم بها لا من حيث ارقامها واحصاءاتها وعدد قرائها . وباختصار فاني انما اطبق على هذه المجلات المقاييس اياها التي نطبقها في العادة على الروايات او القصائد او المقالات الجدية الجيدة : مقاييس الهدف والنوعية . فاذا نظرنا اليها بهذا المنظار وجدنا ان المجلات الادبية الجدية اللاتجارية هي جزء من الادب الجدي .

وكيما نتجنب التشويش ، لنتابع التعريف والتحديد لحظة اخرى . ان مجلة كالمجلات التي اتحدث عنها لا تنشر بقصد تحقيق ربح مادي ولا توجه الى جمهور كبير وهمي مصطنع ، كما هو الحال في معظم مجلاتنا التجارية . انا لا انكر ان في بعض مجلاتنا التجارية مقدارا معينا من الجدية ومن الامانة الفكرية ، لكن على هذه المجلات ، ان كانت تطمح في النجاح ، ان تعنى « بالصرعات » الصحفية من نوع ما، لان ارتباطها اشد بالرأي العام منه بالادب والفكر الاصيلين . زد على هذا ان المجلات التي تبيع مائة الف نسخة من كل عدد من اعدادها هي ايضا صغيرة عندما تقارنها بالمجلات الكبيرة فعلا او بما تستطيع السوق ان تتحمله . ويخيل لي ان ابرز ما يميز المجلات الجدية اللاتجارية الادبية والثقافية هو ان ما ينشر فيها انما يقرره محرروها على ضوء رأيهم في نوعيتها واصالتها واتجاهها وهدفها. وهذا كما هو واضح هو ما يبقيها « صغيرة » وبعيدة عن الاضواء العامة — ومفلسة على الدوام .

واذا كانت المجلات الادبية تهدف الى النوعية فان علينا بالطبع ان نحكم عليها بمقياس نوعيتها . وواضح ان عشرات المجلات التي تبزغ وتأفل كل عام ليست جميعها جيدة ، بل وليست جميعها كما تدعيه هي. وبعضها لا يبيع اكثر من مائتي نسخة ، وبعضها اقل من ذلك . ومنها ما هو كثير الادعاء والتظاهر، ومنها ما يتزيى بزي المجلات الطليعية من حيث الاخراج والطباعة ليس الا . وكثير منها يصدرها محررون يشك في سلامة عقولهم ، يخيل اليهم ان انعدام وجود الذكاء هو جواز سفر الى الخلق والابداع . لكن مع هذا كله ، فان هذه المجلات حتى في اسوأ امثلتها ليس ضررها الا زهيدا جدا ولا يتأثر به غير عدد اقل بكثير من الذي يتأثر بضرر المجلات الشعبية الرديئة الواسعة الانتشار ، وهي فوق ذلك تساعد ولو لحد زهيد على ان تبقي حيا تيارا من التلقائية والهواية ومعارضة الآراء والاوضاع السائدة ، تيارا هو التربة التي تنبت منها المواهب الجديدة المبتكرة . والواقع ان خيرة المجلات الادبية اللاتجارية قد كانت اول من نشر معظم الآثار الاولى للكتّاب والنقاد الموهوبين في سائر انحاء العالم. الا ان لهذه المجلات بالاضافة الى كل ذلك مهمة اخرى ذات شأن كبير، هي الاحتفاظ بطائفة من الكتّاب والقراء الجديين، طائفة كانت في الماضي توجد بشكل طبيعي وتعمل على حمل اعباء ثقافة المجتمع . واظن ان بامكاننا ان نؤكد تأكيدا قاطعا انه بدون مثل هذه الطائفة من رجال الثقافة تحل بنا فوضى فكرية. اذ من اين كانت لتأتي الموهبة ويأتي الذكاء اللازمان لظهور فن جديد وآراء اجتماعية وسياسية جديدة ؟

في الآونة الاخيرة اخذ البعض يزعمون ان المجلات الشعبية والتجارية الواسعة الانتشار قد شرعت تنشر ادبا وفكرا جديين ، مقللةً بذلك من اهمية المجلات الصغيرة اللاتجارية . اني اعتقد بكل صراحة ان هذ

ليس الا وهما ثقافيا ، لان ما تفعله المجلات الكبيرة ما هو الا انها « تتبنّل » محتوياتهـــا بكتابات للمؤلفين الشهيرين ليست في العادة بمستوى كتاباتهم الجيدة وتنشرها لمجرد كونها مهورة بامضائهم . وهي عندما تنشر شيئا لـكاتب جدي فان ما تنشره له يبطل تأثيره نظرا لما يحيط به من جميـع الجهات من رسوم هزلية وصور قذرة ومقالات تقصد منها الاثارة او توجه الى القارىء العادي المتوسط . فواضح لذا ان هناك خطرا زهيدا جدا بان تغتصب هذه المجلات مهمات « المجلات الصغيرة » . بل على العكس من ذلك، عندما تنشر المجلات الكبيرة اشياء غير موجهة او محببة للقارىء العام (وانا لا اهاجم ذلك، خاصة لانها تدفع لقاءها مبالغهائلة)، عندما تنشر اشياء تعودنا ان نجدها في المجلات الصغيرة ، فهذا دليل على اتجاه جديد نجده اليوم عندنا ، هو تقنين الثقافة وصبها في قالب واحد . صحيح ان المجلات الشعبية الجماهيرية ليست الآن بعيدة عن الفـــن الاصيل المجدد بالمقدار الذي كانت عليه في الماضي ، وهذا حقا امر حسن في كثير من النواحي. لكن في الوقت ذاته ، عندما تدمج هذه المجلات الفن الجيد والرديء ، والفن الجدي والبذيء، والفكر وثرثرات المجتمع ، فانها تنتج اطباقا ثقافية يجتمع فيها ما هو محبب للجمهور وقابل للبيع وما هو مسفسط محذلق – لكنهـــا تجمع معا اشياء كان يجب ان تظل منفصلة عن بعضها البعض ، فيتشوش جمهور القراء الى حد انهم يفقدون كل مقدرة على التمييز بين الاشياء . وتكون النتيجة عكس ما يزعم انصار هذه الفكرة في العادة : فبدلا من ان تزيد في شهية الجمهور العام للفن الجدي ، تشجع هذا الجمهور على الاعتقاد بان على الفن ان يجعل بشكل من الاشكال سائغا مقبولا له ، وانه والمقبلات المختلفة من صنف واحد . ولعل بعض النـــاس يعتقدون ان على الكتابات الجدية ان تغلف باطار جذاب . لكن رغم كافة الاغارات التي تقوم بها المجلات الشعبية ووسائل « الثقافة » الاخرى على الكتابة الجدية ، فان معظم الكتابات التي ليست بقلم مؤلفين مشهورين او ليست سهلة او ليست متزيية بالزي الشائع ما زالت حتى الآن لا تلقى الا اقبال جمهور صغير محدود .

وتصبح طبيعة المجلات اللاتجارية اوضح لنا اذا نظرنا اليها كشكل من اشكال النقد الادبي والثقافي .فهي ليست مجرد مجموعة من القصص والقصائد والمقالات ؛ بل هي ، من خلال انتقائها لمحتوياتها ، تأكيد لمقاييس وقيم وآراء والتزامات وتساؤلات وشكوك حول الفن والمجتمع . وهي تصبح ، عن طريق المواد التي ترفضها والتي تقبلها على السواء ، وعن طريق وجهات النظر التي تروجها، فعلا ايجابيا للنقد وللخلق ، شأنها في ذلك شأن اي اثر روائي او نقدي ادبي . وهي تمد جمهور قرائها (وهو مثاليـا وكما يفترض ، جمهور مستنير ومعني بمصير الفن والمجتمع) باحساس بالروابط بين المواهب الجديدة وبين الاجواء والافـــكار المختلفة التي تشغل اهتمام اهل الفكر . ان جمهور قرائها ليس مجموع الذين يبتاعونها او يشتركون فيها فحسب ؛ بل هو يتألف من اناس يعنيهم حقا ما تفعله المجلة ، ويعاملونها كما لو كانت ملـكا عاما. وكل من يعمل في مجلة كهذه، من السكرتيرة حتى رئيس التحرير، يلتم حوله باستمرار قراء يشعرون بان العدد الاخير قد خذلهم او اغاظهم او خيب املهم ، كما لو ان المجلة ملك لهم .

واني لا اعرف شخصا واحدا لا يعتقد بانه يستطيـع ان يحرر مجلتي خيرا مما احررها انا . ويبدو احيانا ان القراء ما هم الا محررون خائبون – وهذا بحد ذاته يكفي لتعليل انتشار المجلة انتشارا محدودا .

لـكنت اشد في الفقرات السابقة على التراث بقدر ما اشدد على الاصالة او الجدة كقوة خلاقة . ولعل السبب ان فكرة الامريكيين عن التراث والجماعة والاستمرار فكرة واهية ، وهم كثيرا ما ينظرون الى التراث كشيء يحد من التقدم . ففي كل مجتمع في طور التغير والتبدل يكون التشديد على شيء مغاير لهذا – على ابقاء المستقبل مفتوحا على مصراعيه وعلى هدم اية معتقدات وعادات تقف في الطريق. ينجم عن وجهة النظر هذه النشاط والجدة ، وهذا امر جيد وله فائدته بصورة خاصة في المجتمعات الكسولة القاعـــدة الهمة . لكنه كذلك الحال يعلق اهمية كبرى على الجدة ويقود الى تهاون في المقاييس التي تقاس بها الاشياء الجديدة . لهـذا على المجلة الادبية في بلد كهذا ان ترفع المقاييس والمستويات والتقاليد كما عليها ان تشجع التجارب والآراء المعارضة المغايرة .

لما في المجتمعات الاكثر تراثية، فتبدو المشكلة على العكس تماما . ففي انكلترا مثلا نجد المؤسسة الادبية

والفكرية راسخة الاركان الى حد يجعل بامكان الجميع من اليسار حتى اليمين ان يتسلوا بمحاولة القضاء عليها. وحجتهم ان قوة التراث عظيمة بحيث يصعب حتى على من هم بعيدون عنه جدا ان يكسروا القوانين . وهذا يفسر عناية الفئات اليسارية فكريا في انكلترا عناية فائقة بتوسيع آفاق الثقافة والتربية وباعطائها قالبا ديمقراطيا . وهو يفسر ايضا سعي الكتّاب اليساريين في انكلترا وتفتيشهم عن الفضائل الخبيئة « لثقافة الطبقات العاملة » – وهو سعي اقلعنا عنه في الولايات المتحدة في آخر الثلاثينات. فبعض النقاد مثل رتشرد هوجرت (الذي احترم كثيرا من كتاباته) يصلون حدا يجعلهم في النهاية يؤلهون طريقة حياة لدى الطبقات العاملة تتأتى عن التأخر والحرمان . كما ان الفئات اليسارية، التي بطبيعتها تصب اهتمامها على فكرة الجماهير، تجد نفسها منساقة مع تأليه الجماهير ، الذي تبين انه ليس خيرا كل الخير على الثقافة ، لكنه خير على التجارة .

والسخرية في هذا الوضع ان الالتزام بالتراث الحديث يقرن بالمحافظين ، بينما تنبعث معارضته في العادة عن الفئات المتحررة واليسارية . وقد قادت المذاهب المتحررة واليسارية الطريق، كما قلت سابقا، الى الاتجاهات الاكثر وعيا اجتماعيا والاكثر شعبية والاكثر مساواة في الفن والفكر . فعندما يقوم ناقد مثل كنث تاينان مثلا بمهاجمة كتّاب كاوجين يونسكو وجان جينيه لما فيهما من تفاهة وحذلقة وبامتداح كتّاب آخرين كآرثر ميلر او المسرحيين الانكليز الشباب الذين يأخذون جانب الشعب ، يكون منسجما مع نفسه . ومن ناحية اخرى لا شك بان بعض الافكار « الاقلية » والمغرقة في التجديد قد ارتبطت بوجهات نظر اكثر محافظة وبكتّاب مثل اورتيغا ي غاسية و ت. س. اليوت – وان يكن يجب التمييز بين المذاهب والفن ذاته ، بين مقالات اليوت مثلا عن الثقافة وبين شعره ، وبصورة خاصة شعره المبكر. انا بصراحة لا اعرف الى اي مدى هذه الصلات بين وجهات النظر السياسية والثقافية هي طبيعية وضرورية ؛ لكن ربما كان المزيج المثالي هو الدمج بين سياسة ديمقراطية وثقافة لا ديمقراطية، وهو اشبه بما يمكن ان نحصل عليه اذا جمعنا مثلا بين الدكتور ف. ر. ليفز والسير تشارلز سنو .

لقد جرى التعبير بصورة دراماتيكية عن المحافظة على الروح التي اعطتنا الفن الحديث والفكر الحديث ، بفكرة الخيانة . فجاء اولا كتاب جوليان بندا « خيانة المثقفين » ، وفيه تقوم الخيانة على الانهماك بالسياسة. وصارت الخيانة تقوم فيما بعد على تجنب السياسة . وفي الآونة الاخيرة تغير الوضع تغيرا جذريا ، واصبحت الخيانة مسألة كون المرء غير صادق مع نفسه ومع حرفته ومع « طبقته » الفكرية . لكن اذا استمر سياق تقنين الثقافة وقتا طويلا ، فقد تختفي المسألة كلية . او ربما اصبح ما هو جديد ، وما هو صغير ، وما هو غير معترف به ، ربما اصبح يعدّ خيانة – لكنه بالطبع سيعدّ كذلك لفترة وجيزة فقط ، لانه اخذ يصبح من الاصعب فالاصعب تجنب الوصول الى الكبر والشهرة ، – وبسرعة .

وليم فلبس

المجلة الادبية ، أهي في طريقها الى الزوال ؟

اظن ان بوسع المرء ان يجيب على هذا السؤال بسؤال آخر : الادب ، هل هو في طريقه الى الزوال ؟ ذلك انه لا معنى لفصل الناقلة عن البضاعة التي تنقلها . ولا شك ان الجواب على كلا السؤالين هو ، في الوقت الحاضر ، النفي الواضح . فطالما بقي اي عدد من القراء ، المهتمين بالفنون والنقد اكثر من اهتمامهم باي شيء آخر ، فسيظل الكتّاب يكتبون وستستمر المجلات بالنشر .

غير اني اطرح السؤال عن « الزوال » كمسألة نسبية . فالقصد منه ان ننظر الى الاهمية النسبية للاهتمام الادبي من بين كل الاهتمامات الاخرى ضمن الكيان الشامل المعقد للحضارة المعاصرة – والقصد منه ان نقوم ببعض التخمينات عن الحاضر والمستقبل . فان استمررنا بلهجة السؤال ووضعنا السؤال بمصطلحات النشر قلنا : هل المجلة الادبية الخالصة هي الآن في طريق الانحدار الى مستوى مجلة الهواية ، بحيث ترادف تقريبا في الوزن الحضاري « مجلة الاسلحة القديمة » او « المجلة الشهرية للقوارب واليخوت » ؟ او هل هناك امل في